

دور التعليم الجامعي في تنمية الرأسمال البشري وفق التحديات المعاصرة

The role of university education in developing human capital in accordance with contemporary challenges

حرفوش مروة

¹ المركز الجامعي نور البشير-الببيض- (الجزائر)، m.harfouche@cu-elbayadh.dz

تاريخ القبول: 2026/05/11

تاريخ الإستلام: 2026/03/18

ملخص:

يعتبر التعليم الجامعي أعلى مستويات المنظومة التربوية والتعليمية؛ فهو يمثل المجال الذي تنتقل فيه المعرفة من التلقين إلى الإنتاج، لكن مع التحولات العلمية والتقنية التي عرفت الحياة المعاصرة، فقد خلقت أمامه عدة تحديات؛ خاصة وأن الجامعة لم تصبح المنتج والمتحكم الوحيد في الفكر والمعرفة، حيث ازداد الوضع صعوبة مع ظهور التعليم المفتوح، فهذا البحث يهدف إلى تحليل الأدوار التي تؤديها الجامعة في التأثير الفعال على الفرد والمجتمع، وخلق رأسمال بشري يساهم في البناء الحضاري، بالإضافة إلى محاولة تبيان التحديات التي تواجه التعليم المفتوح ومدى مواكبته للتغيرات الحاصلة.

الكلمات المفتاحية: تعليم جامعي؛ تعليم مفتوح؛ تنمية؛ رأسمال بشري؛ فرد؛ مجتمع.

Abstract:

University education is considered the highest level of the educational system. It represents the field in which knowledge is transferred from indoctrination to production. However, with the scientific and technical transformations that contemporary life has witnessed, several challenges have been created for it, especially since the university has not become the sole producer and controller of thought and knowledge. The situation has become more difficult with the emergence of open education, This research aims to analyze the roles played by the university in effectively influencing the individual and society, and creating human capital that contributes to building civilization, in addition to trying to clarify the challenges facing open education and the extent to which it keeps pace with the changes taking place.

Keywords: university education; open education; development; human capital; individual; society.

1. مقدمة:

لقد شهد العالم في وقتنا المعاصر تحولات عميقة مست جميع مناحي الحياة الإنسانية؛ الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، والتي تعود في الأساس إلى التطور العلمي والتكنولوجي وما أفرزه من منتجات مختلفة ومتعددة؛ كالإنترنت والذكاء الاصطناعي، ليؤثر هذا التحول فيما بعد على الجانب القيمي والمعرفي، وكذلك ظهر أثره على البنية الثقافية للمجتمع، وبما أنّ الجامعة تعد من أهم الركائز التي تساهم في التنمية المعرفية والاقتصادية والاجتماعية، وما تلعبه من دور فعال في إنتاج المعرفة وصناعة القيم الإنسانية وتأهيل الكفاءات، فقد فرض عليها الوضع الراهن تحديات جديدة لم تعرفها فيما سبق، ووضعها في تحديات أوجبت عليها إعادة النظر في مبادئها ومناهجها وأدوارها حتى يتسنى لها المحافظة على مكانتها والقيام بأدوارها الحضارية، لذا ارتأينا البحث في العلاقة الكامنة بين التعليم الجامعي و رأس المال البشري ومدى حدوث التفاعل بينهما لتحقيق التنمية الشاملة، ولمعالجة مشكلة البحث تم طرح الأسئلة على النحو الآتي:

- إلى أي مدى استطاعت فلسفة التعليم الجامعي مواكبة الحياة المعاصرة ومواجهة التحديات التي تعترضها؟

بما أنّ التعليم المفتوح من أبرز التحديات البارزة هل استطاع خدمة التعليم الجامعي أم أنه فرض عليه إبداع استراتيجيات جديدة ليتسنى له الحفاظ على مكانته؟

تحاول هذه الدراسة تحقيق جملة من الأهداف من خلال تبين أهمية التعليم الجامعي في توجيه الفرد وتنميته وتطويره، وخلق مجتمع متكامل الأطراف والأدوار، وكذا استخراج العلاقة الموجودة بين التعليم الجامعي والتطور الحضاري، بالإضافة إلى الوقوف على التحديات الماثلة أمام التعليم العالي خاصة مع ظهور الرقمنة والتعليم المفتوح، وسبل معالجتها في الجامعة الجزائرية.

ولمعالجة مشكلة الدراسة تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي؛ من خلال التعرف على التعليم المفتوح في الجامعة الجزائرية، ورصد مختلف الأدوات التقنية المستحدثة كاستراتيجيات لتطوير التعليم العالي، وكذلك تحليل دور التعليم الجامعي في التأثير الفعال على المجتمع من خلال استثمار رأس المال البشري وتكييف التكنولوجيا الحديثة ومفرازاتها وفق ما يخدم الفرد الجزائري والجامعة الجزائرية دون الابتعاد عن مقتضيات الواقع وما تفرضه الحياة المعاصرة وتقلباتها.

وللإجابة على هذه التساؤلات حاولنا معالجتها من خلال تقسيم هذا العمل إلى مجموعة محاور وفق ما تسمح به حدود هذه الورقة البحثية.

أولاً: ضبط مفاهيمي لموضوع الدراسة

لقد ارتأينا قبل الخوض في الموضوع طرح أهم المفاهيم المتعلقة بالدراسة، وسنعرضها على النحو الآتي:

1. في مفهوم التعليم الجامعي:

يعرف التعليم الجامعي على أنّه تلك المرحلة التي تقوم على التخصص العلمي في جميع مجالاته وأنواعه ومستوياته، رعاية لذوي الكفاية والنبوغ، وتنمية المواهب، وكذا سد حاجيات المجتمع المتعددة والمتنوعة في حاضره ومستقبله بما يساير التطور المفيد الذي يحقق أهداف الأمة وغايتها. (الغامدي و نور الدين محمد عبد الجواد، 2004، صفحة 221)

كما يعرف أيضا على أنه مرحلة من مراحل التعليم التي تتيح للطلبة اكتساب مهارات وقدرات تساعدهم في عملية التكيف مع كل ما هو جديد ومستحدث، وفق منهج محدد ويكون في جامعات أكاديمية، حيث تشمل العديد من الكليات والمعاهد، وكذا الكليات التقنية بكافة أشكالها. (السندي، 2023، صفحة 87)

من خلال التعريفات السابقة تبين لنا أن التعليم الجامعي هو أعلى مراتب التعليم، والذي يعكس النشاط الذي تقوم به الجامعة باعتبارها أعلى مؤسسة تعليمية؛ تعتمد على مناهج مسطرة وفق أهداف محددة، وتشمل تخصصات متنوعة، حيث تعمل على نقل المعارف للطلبة النظرية منها والتقنية، وكذا تهتم بتنمية مهاراتهم وقدراتهم العقلية.

2. في مفهوم الرأسمال البشري:

يعرف الرأسمال البشري على أنه عملية تشمل الإنفاق على الإنسان لزيادة دخله، أو بالأحرى هي عملية الإنفاق على الإنسان لزيادة مهاراته ومعارفه الإنتاجية، وبالتالي زيادة الدخل الذي يمكنه الحصول عليه في فترات لاحقة. (الحناوي، 2006، صفحة 7)

كما يعرف أيضا بأنه مجموع تلك المعارف والمؤهلات، ومحصلات الخبرة التي يمتلكها الأفراد والتي تزيد في إنتاجيتهم اقتصاديا، ويزيد الرأسمال البشري بالاستثمار في التربية، والصحة، والتكوين المهني وكذا التعليم الجامعي. (تواتي، 2014، صفحة 184)

من خلال التعريفات السابقة يمكن القول أن الرأسمال البشري أساسه الإنسان الذي يولد بقدرات ويكتسب مهارات وكفاءات ويكونها من خلال ما يوفر له من تعليم وصحة باعتباره استثمارا، ليساهم فيما بعد في الإنتاج الوطني.

3. في مفهوم التعليم المفتوح:

هو صيغة تعليمية جديدة ومستحدثة تطلق على مؤسسات التعليم العالي، التي أنشأت لتخلق نظاما تعليميا جديدا؛ يقوم على ديمقراطية التعليم باعتباره حقا من حقوق الإنسان، ليتجاوز هذا النوع من التعليم حدود الزمان والمكان، وذلك من خلال الاستفادة من التطور العلمي والتكنولوجي، بهدف جعل المادة العلمية والتعليمية في متناول الطالب أينما وجد.. وأينما ارتحل وفي أي وقت أراد. (قيبي، 2019، صفحة 11)

وبذلك فإن هذا النوع من التعليم يجعل المتعلم والمعلم أكثر تحررا من الالتزامات الخاصة بالزمان والمكان، فعملية التعلم تكون وفق ما تمليه عليه ظروف المتعلم وتبعا للوقت السانح لذلك، وبالاستفادة من التكنولوجيا الحديثة وما توفره من تسهيلات.

ثانيا: دور التعليم الجامعي في بناء الفرد:

تلعب الجامعة دورا حيويا في تحقيق التقدم والتطور والرقى الحضاري، وهذا لأنها تستهدف العنصر البشري؛ فهي تجعل من الإنسان الغاية والوسيلة في نفس الوقت؛ بمعنى أن الاستثمار الفعلي للإنسان لا يتحقق واقعا إلا حين تحسن الجامعة استثمار واستغلال قدرات أفرادها؛ أي أن غايتها هنا إخراج أفضل ما في الفرد من قدرات ومهارات، وهذا الاستثمار الفعال للإنسان سيسمح فيما بعد بتحقيق التنمية الشاملة؛ الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ فهي بذلك تستخدم الإنسان في تحقيق النمو والتطور.

كما أكد الكثير من العلماء والمفكرين والباحثين أنَّ شخصية الإنسان وقدراته ومواهبه تصقل داخل أسوار الجامعة، فالجامعة تعد من المؤسسات التعليمية والاجتماعية التي تؤثر في تنمية القدرات الفكرية والمهنية والاجتماعية للفرد، فهي بذلك لا تكتفي بتقديم المعارف والمعلومات وتلقينها، بل إنها تسهم في بناء منظومته القيمة، فتجعله متحلياً بالقيم الإنسانية، متشبعاً بالروح النقدية التي اكتسبها من البحث العلمي، وهذا الأخير يعد من أهم مجالات التعليم العالي الذي يقوم على أنشطة بحثية منها النظرية والتطبيقية، حيث يكلف الطالب بإنجاز أبحاث وفق شروط علمية؛ منهجية وأكاديمية، ويشترط عليه فيها الإبداع، والإبداع بطبيعة الحال لا يكون إلا من خلال التحلي بروح النقد، والنقد هنا يشمل نقد الأفكار المطروحة من طرف المفكرين والعلماء والفلاسفة، وفي المقابل على الطالب أو الباحث أن يتقبل أيضاً النقد الموجه له من قبل أساتذته وزملائه من الطلبة، ومع الاستمرار بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب سيكتسب الطالب مع مرور الوقت؛ بعد النظر في القضايا ويتوسع أفقه الفكري والمعرفي، كما يمنحه سعة صدر تجعله أكثر تقبلاً للآخر حتى وإن خالفه أو اختلف عنه، لذا فإنَّ أغلب المؤسسات الجامعية تسعى لربط مرتاديهما بالحقائق الوطنية والدولية مع منحهم الأبعاد العلمية والنقدية من أجل خدمة الأهداف المجتمعية. (بواب، 2021، صفحة 34)

ضف إلى ذلك أنَّ التعليم الجامعي يسهم في تشكيل الإنسان على نطاق واسع حيث يرسخ لثقافة الحوار والتفاهم مع الغير، وينمي فيه روح المسؤولية الفردية والجماعية، فالدراسة الجامعية تضع الطالب داخل المجتمع الطلابي وداخل الوسط الجامعي، وهذا الوسط وهذا المجتمع سيضعه أمام قضايا ومسائل، وقد يقع في إطار تفاعله العلانقي مع هذا المجتمع في مشكلات أو قد تواجهه عراقيل يسعى جاهداً لحلها، وهناك قضايا قد تفرض عليه وتدفعه لإيجاد حلول أو اكتشاف طرق للتكيف معها، فهذه التجارب التي لم يعدها فيما سبق سيخرج منها بخبرات، وتنمي فيه روح المسؤولية والمشاركة الجماعية العملية منها والوجدانية، ليكون التعليم الجامعي هو المساهم الأول في تكوين شخصيات قيادية سمتها الأدب وروح الحوار، وتقبل الاختلاف بمرونة وموضوعية نظراً لما تشبع به الإنسان من ثقافة علمية أكاديمية، وهذا ما يسمح له بالتكيف مع تطورات الحياة وفقاً لما اكتسبه من خبرات. (السندي، 2023، صفحة 89)

ومن ضمن الأدوار التي يلعبها التعليم العالي في التأثير على الأفراد ما يقدمه من إسهامات من أجل توسيع المدارك العقلية للفرد؛ وهذا من خلال تعميق الفهم المنهجي والعلمي للظواهر المحيطة به في عالمه الخارجي؛ المادية منها والمعنوية، وهو ما يسمح له بتعزيز قدراته التحليلية والنقدية للظواهر، ويمنحه سرعة البداهة والاستنتاج ووضع إسقاطات على ظواهر مشابهة ليستنبط منها أحكام وقواعد جديدة، وهذا ما أكد عليه "الفريد مارشال" حين أقر أنَّ الفئة من الناس التي تملك رصيذاً من العلوم والمعارف؛ هي فئة لا يمكن أن تكون فقيرة؛ لأنها مسلحة بالعلم والمعرفة، وتملك طموحاً يؤهلها لتسخير الطبيعة لصالحها بمواردها الموجودة فوق الأرض أو تحت الأرض، فهذه الفئة تملك القدرة على الإنتاج والخلق والإبداع، كما أنَّ التعليم الجامعي يمكن الفرد من الاطلاع على المستجدات العلمية والمعرفية في مجال تخصصه، وهذا الاطلاع وحسب الاكتشاف راجع للمناهج العلمية التي تشبع بها في الجامعة، وتجعله يحل مشاكله بطريقة منطقية وعقلانية، بخلاف عامة الناس الذين لم يستطيعوا الوصول إلى هذا المستوى العلمي والفكري، وبذلك فإنَّ التعليم الجامعي يسهم في تنمية البعد المعرفي والفكري للفرد. (حميدي و محمد أمين رماس، صفحة 06)

ومن بين المهام التي يقوم بها التعليم الجامعي في بناء الفرد هو كون الجامعة تعمل على تأهيل الفرد للحياة المهنية؛ من خلال إكسابه مهارات تساعد على فرض مكانته في سوق العمل والمساهمة الفعالة في التنمية الاقتصادية، نظراً لما تقوم به من تطوير مهاراته التطبيقية والمهنية، كالتحكم في تقنيات الحاسوب التي يفرضها

علمها إنجاز البحوث، وكذلك الابتكار والإبداع التي يكتسبها من خلال الخرجات العلمية والعمل داخل المخابر التي تتيحها له الأعمال التطبيقية، وأيضا يكتسب مهارة التواصل والقيادة (السندي، 2023، صفحة 89)؛ لأنَّ الإنسان مهما امتلك من قدرات عقلية وإبداعية لا يمكنه تنميتها إن لم يحظى بتوجيه علمي وأكاديمي، والواقع خير دليل فهناك الكثير من الطاقات البشرية أهدرت وضاعت مواهبها؛ لأنها لم تجد الدعم والتوجيه الكافيين لتقديم أفضل ما عندها، لذا نلاحظ أن الدول المتقدمة تسخر ميزانية عالية للبحث العلمي والتطوير؛ كالولايات المتحدة الأمريكية التي تنفق حوالي 822 مليار دولار في السنة على البحث والتطوير؛ أي ما يقارب (3.5 %) من الناتج المحلي الإجمالي، هذا ما يعكس مكانتها كقوة علمية وتقنية، كما توفر لكل من ترى فيه موهبة أو طموحا جوا ملائما وتسخر له كل الطاقات المادية والبشرية المساعدة حتى يقدم لها الأفضل، وعليه فإنَّ التعليم العالي يسمح بتنمية البعد المهاري والمهني.

وبهذا فإنَّ الكثير من الدراسات الحديثة المتعلقة بقضايا التقدم والتحضر، أكدت على ضرورة حسن استغلال الإنسان وتوجيهه التوجيه الفعال، الذي صار يطلق عليه تسمية الرأس مال البشري بدل الاهتمام بالرأس مال المادي، فقد كان يعتقد في السابق أنَّ هذا الأخير هو أساس التنمية الشاملة وتحقيق الرفاه المادي والاستقرار النفسي، إلا أنَّ أغلب المخططات التي وضعت والأهداف التي سطرت لم تحقق التنمية والرفاه المنشودين، ليتغير الفكر إلى منحى آخر فصار الإنسان هو أهم أعمدة الإنتاج تبعاً لما يملكه من معارف ومهارات وقدرات، وأصبح الاهتمام باستثماره بدل استغلاله، فالاستغلال كان مع المجتمع الإقطاعي، والذي زادت وتيرته وحدته مع ظهور الصناعة التي أدت إلى الحط من قيمة الإنسان؛ لأنَّ الآلة تعمل بدله بل وأفضل منه، لذا فإنَّ الدول التي استطاعت تحقيق نموها وتطورها كان بفضل اهتمامها بالإنسان، وتكييف التعليم الجامعي لخلق المعرفة وتحسين الأداء والابتكار والإبداع، بدل استغلال الإنسان وكرست لفكرة مؤداها أنَّ الإنسان هو الغاية والوسيلة لتحقيق التنمية المستدامة والابتكار والإنتاجية، ومن أمثلة ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك سنغافورة والصين وكوريا الجنوبية، فقد استطاعت هذه الدول تمويل البحوث والقيام بإصلاحات لتتوافق المخرجات مع حاجات السوق. (حمايدي، صفحة 176)

ثالثاً: دور التعليم الجامعي في بناء المجتمع

بما أنَّ التعليم الجامعي يعد فعلاً إنسانياً تأسيسياً، فهو لا ينحصر في الجانب الوظيفي فقط من تخرج للكوادر والإطارات العلمية؛ بل هو فضاء للوجود العقلاني أساسه الممارسة الأنطولوجية التي ترمي إلى تكوين الإنسان الذي يسهم في بناء المجتمع، والذي يملك قيمة في ذاته لا بوصفه أداة فقط تستهلك ويتم التخلص منها عند تحقيق الغاية منها، إذ تبقى قيمته موجودة مهما كان العمل الذي قدمه للمجتمع بسيطاً، وهذه القيمة تقوى وتتطور حين يكون قوة فاعلة في التغيير الفعال، وهذه القوة يكتسبها من مختبر القيم الممثل في الجامعة التي تقوم بتكوين مفاهيم وتصوراتهِ وكذلك تصويها وجعلها مرتبطة بالحياة الاجتماعية، وملتزم بما يمليه عليه المجتمع من شروط سياسية واقتصادية وثقافية وقيمية؛ ذلك لأنَّ المجتمع يتكون من مجموعة أفراد وقوة المجتمع تشكل بتماسك وتعاضد أفرادهِ؛ أي أنَّ المجتمع لا يقوم إلا بتكامل وظائف أفرادهِ وإسهاماتهم في خدمة مجتمعاتهم، والفرد لا تقوى شوكتة إلا حين يكون ضمن مجتمع يقدره ويحفزه على النمو والعطاء، وبهذا المعنى فالجامعة هي مرآة عاكسة لقيم المجتمع.

كما أن التعليم الجامعي يقوم بسد حاجات المجتمع إلى المهن المختلفة كالذين يشغلون مهنة الطب والرعاية الصحية، وكذلك المهن الهندسية، وتكوين وتخرج أساتذة لتربية وتكوين النشء، بالإضافة إلى المهن

التقنية كالكهرباء والطاقات المتجددة، فهذه المهن تسمح للأفراد بتقديم خدمات جليلة لمجتمعاتهم خاصة إذا حظوا بتكوين جيد وبذلك تساهم في تكامل أدوار أفرادها، وهو ما يبعث على نمو المجتمع وتطوره. (حميدي و محمد أمين رماس، صفحة 02)

ومن بين الأدوار التي تؤديها الجامعة في خدمة المجتمع أنها تساهم في الحفاظ على التراث الثقافي وعلى ترقية الثقافة المحلية والإنسانية، فالتعليم العالي يقوم بتشكيل وعي أفراد المجتمع بانتمائهم التاريخي والحضاري، خاصة مع ظهور العولمة وتأثيرها على الهوية الثقافية والمساس بها، فكان من أولويات هذا التعليم الحفاظ على الخصوصية الثقافية للأمة، وهذا يوجب عليها رسم برامج تعليمية؛ تحفظ اللغة الوطنية والذاكرة الجمعية، وتعيد قراءة التاريخ المحلي حتى يتسنى لها إنتاج فكر يعبر عن الذات الحضارية للأمة، كتدريسهم للفكر الإصلاحي (لابن باديس)، و (مالك بن نبي)، وتاريخ أعلام الثورة، وتاريخ الحضارة والفكر الإسلامي، ونجاح هذه البرامج يساهم فيه أيضا النشاط العلمي والتظاهرات الثقافية؛ من ملتقيات دولية ووطنية، وندوات فكرية؛ نظرا لما تملكه من قوة التأثير في الجماهير الوافدة والطلبة والأساتذة وكل هؤلاء الفئات هم نواة المجتمع هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تنتج رموزا فكرية جديدة تشكل قادة الرأي الثقافي وتعمل على إثراء الرصيد الثقافي وتبعث فيهم روح الإبداع والتجديد وفق متطلبات الحياة المعاصرة. (بواب، 2021، صفحة 34)

ومن ضمن النقاط الأساسية التي تعكس إسهامات التعليم العالي في بناء المجتمع؛ هو التحرر من التبعية الفكرية والمادية، ولن يتأتى هذا إلا عندما تمنح للمجتمع قدرة على إنتاج فكره الخاص الذي تبنيها المرجعية الحضارية والهوية الثقافية، فالباحث العلمي يحول المجتمع من مستهلك للمعرفة إلى منتج لها، فمثلا التجربة الماليزية استطاعت في غضون سنوات معدودة أن تنهض بمجتمعها، حين طورت من تعليمها العالي وجمعت فيه بين العلوم الحديثة والقيم الإسلامية واللغة الوطنية، مما منحها استقلالية عن النماذج الغربية وتحررا من التقليد الأعمى، وبطبيعة الحال فالتحرر الفكري والمعرفي سيمنح المجتمع تحررا ماديا من خلال تنظيم سلوك الإنتاج والاستهلاك، وكذا التركيز على التصنيع المحلي، وما يشجع على ذلك امتلاك كفاءات مكونة تكوينا يخدم متطلبات المجتمع.

رابعا: التعليم الجامعي في مواجهة التعليم المفتوح:

يشهد التعليم العالي في العصر الحالي والذي يطلق عليه تسمية العصر الرقمي؛ تحولات راديكالية مست البنى التحتية والأطر الكلاسيكية للمؤسسات الجامعية، فكان التعليم المفتوح من بين أكثر التحديات التي فرضت على التعليم العالي، خاصة وأنه يقوم على إتاحة المعرفة للجميع دون القيود الزمنية والمكانية، حيث أثر على مجموعة أبعاد وأحدث ارتجاجات في التعليم العالي و كذا على مفهوم الجامعة باعتبار هذه الأخيرة فضاء معرفي، يقوم على التنظيم والتخطيط والتقويم الأكاديمي والانضباط والالتزام بشروط الزمان والمكان.

وبما أن التعليم المفتوح هو إحدى إفرازات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وذلك من خلال استخدام الشبكة العنكبوتية من أجل إيصال المعارف الإنسانية بمختلف أنواعها، والمحتويات التعليمية المتنوعة للمتعلمين أينما كانوا وأينما وجدوا ووقت ما أرادوا ذلك، ففي المقابل إن التعليم التقليدي يقوم على التعليم الحضوري والمتدرج من خلال برامج ومقرراته ومناهجه التي يشرع لها ويصادق عليها من طرف الجهات العليا؛ أي أنه يقوم على الاعتماد الأكاديمي ويكون تحت رقابة الدولة، في حين أن التعليم المفتوح يقوم على التعلم الذاتي والمرن، يقتضي من المتعلم اتخاذ قرارات ومواقف فردية، تقوم على استقلالية تفكيره بعيدا عن الصلة المباشرة والتوجيه المباشر للمعلم. (مبارك، 2023، صفحة 49)

فهو بذلك يؤصل للحرية الفكرية بدل تعليم الأفكار والتحكم فيها وتوجيهها وفق الشروط القيمة والمجتمعية، مما يؤكد أنَّ التعليم المفتوح يقتضي التعليم الحر وينتج عنه التفكير الحر، إلا أنَّ هذه الحرية حرية مزعومة فهناك أطراف أخرى تتحكم في ذهنية وتفكير المتعلمين وتمدهم بجزء ضئيل من الزاد المعرفي والتوجيه المنهجي الخلاق، لذا يصعب إخضاع هذا النوع من التعليم للجودة الصارمة، وبهذا فالتعليم المفتوح يلعب دورا كبيرا في التأثير على البعد المعرفي والمنهجي، وهذا ناتج عن التحول والانتقال من الأنموذج المؤسساتي إلى الأنموذج الشبكي.

وفي إطار ما خلقه التعليم المفتوح من أثر على المستوى المعرفي والمنهجي، فقد خلق هذا الأمر تحدي جديد أمام الجامعة وفرض عليها إعادة تحديد موقعها جراء مما حدث لها من تفكيك للحضور الأنطولوجي، فبعدما كانت العلاقة بين الطالب والأستاذ تكمن في علاقة التواصل المباشر والأخذ والعطاء بين الفكر والخبرة، وهذه العلاقة تقوم بتكوين الوعي والنضج الأكاديمي نتيجة التوجيه الدائم للطالب من طرف أساتذته، والذي يؤثر أيضا على الجانب الوجداني والشخصي نتيجة العلاقة المباشرة بين طرفي العملية التعليمية، فقد يأخذ الطالب من أحد أساتذته الدقة والموضوعية، ويأخذ من أستاذ آخر العطاء والصبر، ويؤثر فيه آخر من ناحية الانضباط وروح المسؤولية، في حين أنه مع التعليم المفتوح صارت العلاقة بينهما: أي بين المعلم والمتعلم علاقة افتراضية بعيدة عن الجانب الوجداني، وعن المشاعر الإنسانية والضبط الأكاديمي والالتزام الكلي المفروض من السلطة الأكاديمية، لذا فإن الغالبية انحازت إلى هذا النوع من التعليم، مما أدى إلى زعزعة الوجود التقليدي للجامعة، فبعدما كانت الجامعة مؤسسة تقدم المعرفة أصبحت مكون من فضاء معرفي أكثر اتساعا، فهنا يظهر أثر التعليم المفتوح على البعد الأنطولوجي للتعليم التقليدي.

وهذا التأثير الأنطولوجي سيؤدي إلى التأثير على منحنى وبعد آخر من أبعاد الإنسان ألا وهو البعد الاجتماعي، فالتعليم المفتوح بأنواعه يحمل فكرا ويحمل أيديولوجية معينة، فمع مرور الوقت يجد الإنسان نفسه خاضعا له، وللأفكار التي أملاها عليه متشعبا بها ومدافعا عنها، وبطبيعة الحال ستظهر في سلوكه الفردي والجماعي، فمثلا ما نلاحظه على طلابنا اليوم داخل قاعات الدرس وداخل المدرجات، يعجزون عن إكمال المحاضرة التي تمتد من ساعة إلى ساعة ونصف، كما يصعب عليهم الالتزام بالوقت المحدد لها، زد على ذلك أن تركيزهم غير مستمر في سماع ما يلقيه الأستاذ من معارف أو ما يقدمه زملاؤهم من أبحاث ويظهر ذلك على وجوههم وفي سلوكهم من تدمير ونفاذ الصبر على الجلوس والانتباه والتركيز.

فقد عودهم التعليم المفتوح على الحضور في الوقت الذي يناسبهم، لذا ففرض وقت محدد عليهم يعجزهم وينفرهم من الدراسة الحضورية لأنها تتحكم فيهم، كما أن الصور والفيديوهات التي يستخدمها التعليم المفتوح كوسيلة مساعدة للتدريس أفقدتهم الصبر على السمع والإصغاء للمعارف والمعلومات، ما جعلهم يميلون إلى ذهان السهولة، وغياب الالتزام الفردي يؤدي بالضرورة إلى غياب الالتزام الجماعي، فمن لم ينفع نفسه ويلتزم مع نفسه لا يمكنه أن ينفع غيره أو يلتزم مع غيره أو من أجل غيره.

فالتعليم المفتوح لا يحرر الإنسان من حدود الزمان والمكان فقط، بل إنه يمس بنية التفكير الجمعي، وأدى هذا إلى ما أسماه (ميشال فوكو) بانفجار الخطاب؛ أي أن الجميع صار يفهم في كل شيء ويعلق على كل شيء وينتقد كل شيء، نظرا لانفتاح القول والمعرفة أمام الجميع، وأدى هذا الأمر بالضرورة إلى تغيير آليات السلطة في المجتمع، وتغيير معها مفهوم النخبة فبعدما كانت النخب هي تلك الفئة المكونة في المعاهد والجامعات تكوينيا

منهجيا وأكاديميا، أصبحت النخب هي التي تملك كفاءة رقمية وقدرة على تحليل المحتوى وتمتاز بحس نقدي، فصار النجاح مرتبطا بالكفاءة لا بالشهادة، وتغيرت بذلك قيم المجتمع.(العيادي، 1994، صفحة 37)

خامسا: الاستراتيجيات المؤسسة للتعليم الجامعي للتكيف مع التعليم المفتوح:

إنَّ التعليم المفتوح باعتباره نمط من أنماط التعليم الجديد الذي أنتجته التطورات التكنولوجية والتقنية، والذي كسر حدود الزمان والمكان وجعل المعرفة متاحة للجميع بسهولة ويسر، فقد فرض على التعليم العالي التقليدي اتخاذ إجراءات وإتباع استراتيجيات حتى يتسنى لهذا الأخير الحفاظ على مكانته وفاعليته، وذلك من خلال النظر في أساليبه التعليمية، وأنماط إدارته للمحتوى الأكاديمي، فعملت الجامعات التقليدية على دمج التكنولوجيا الحديثة في التعليم، وتطوير البرامج الالكترونية، كما قامت بعقد شراكات مع منصات التعليم المفتوح وكان هذا من خلال اتخاذ السبل التالية:

التعامل مع منصة (MOODLE) في نشر الدروس والمحاضرات والبحوث العلمية والأكاديمية، وكان هذا من خلال تدريب الأساتذة والباحثين على استخدامها من خلال الاستعانة بخبراء في هذا المجال وتنظيم دورات تدريبية، وكذا الاستعانة بخبراء مهودوا لهم الطريق لوضع دروسهم بطريقة تفاعلية، وأيضا استخدام منصة (ZOOM) و (MEET GOOGLE) كتقنيات للتحاضر عن بعد، وأيضا استخدمت هذه التقنيات لعقد اللقاءات العلمية؛ من ملتقيات دولية ووطنية وندوات فكرية، ودروس عبر الخط، والأمر الذي شجع على ذلك جائحة كورونا -كوفيد19- والتي منع فيها الناس من اللقاءات المباشرة والاحتكاك ببعضهم البعض، فكان عليهم مواصلة الدراسة والقيام بالأبحاث العلمية والاستزادة بالمعارف من خلال تقنيات التحاضر عن بعد باعتبارها جزء من منظومة التعليم المفتوح، كما أن هذا الأمر كان نزولا عند رغبة الكثيرين الذين لا يستطيعون مواصلة تعليمهم النظامي إلا بالاستعانة بهذه التقنيات؛ أي أنَّ الأمر كان كإستراتيجية لإرضاء وكسب ثقة الجماهير من الناس الذين لديهم رغبة في التعلم.(الخفاجي، 2015، صفحة 14)

توفير التجهيزات الحاسوبية والوسائل التقنية المختلفة التي تسهل عملية التعليم والتعلم والمضي بها قدما، مع تكليف أشخاص للوقوف على هذه الأجهزة وهذه العملية، ومن الأمثلة التي يمكن أن نضربها في هذا المقام عندما حدثت جائحة كورونا -كوفيد19- اعتمدت الجزائر على التلفزيون التعليمي؛ باعتباره من بين أساليب التعليم الذاتي الأكثر شيوعا والأكثر انتشارا وأسهل وسيلة متوفرة لدى الجمهور، إذ أنه عندما لم يكتمل برنامج الدراسة في المرحلة الثانوية، وبالتحديد لدى طلاب امتحان شهادة البكالوريا، استعانت الدولة بهذه الوسيلة التعليمية حتى تكمل ما لم يتم إكماله من دروس في المدارس نظرا؛ لأن العطلة جاءت فجائية تحسبا للإجراءات الوقائية، وقد أشرف على الأمر أساتذة مختصين وخبراء في المجال.

تبني النموذج التعليمي المدمج، وذلك من خلال الجمع بين المحاضرات الحضورية والدروس الإلكترونية عبر الإنترنت، حيث يقوم على جانبين؛ جانب يكون من خلال الحضور المباشر للأستاذ والطالب على حد سواء إلى قاعة الدرس أو المدرج أو المخبر، وهذا يتوقف على مادة التخصص، أما الجزء الثاني فيتمثل في الجانب الإلكتروني فيقدم الدرس أو المحاضرة على إحدى منصات التعليم، ويتضمن الاستعانة بالفيديوهات والمحاضرات المسجلة، واختبارات. قصيرة.

II. خاتمة:

من خلال ما تم عرضه وتقديمه في هذه الورقة البحثية ومما سبق تحليله من أفكار نجمل ما توصلنا إليه من استنتاجات في شكل مجموعة نقاط:

أن التعليم الجامعي يسمح للإنسان بالوصول إلى التكامل المعرفي والمنهجي والقيمي والاجتماعي؛ فهو يؤثر على الأبعاد المختلفة للإنسان إن أحسن توجيهه، لكن الأمر الملاحظ على المجتمعات العربية الإسلامية أنها تركز على الكم أكثر من الكيف، فسهلت عملية الحصول على الشهادات الجامعية دون التكوين الجيد لأفرادها.

-أن الثورة الرقمية فرضت نفسها على الإنسان المعاصر ما حتم على التعليم الجامعي ضرورة إدماج التكنولوجيا بمناهجها التعليمية، والتي لم يتم استيعابها بصفة مطلقة ما جعلها تتخبط في المرحلة الانتقالية ما بين التقليد والتجديد.

-إن مواكبة متطلبات الحياة المعاصرة يستوجب تحولاً فلسفياً في فهم وظيفة الجامعة من مؤسسة لتلقي المعارف، إلى فضاء لابتكار وتوليد الأفكار وصناعة إنسان مؤهل للتصدي لجميع التحديات التي تواجهه.

-ضرورة عصنة فلسفة التعليم العالي من خلال وضع نظريات تربوية تحدد فيها أهداف ووظائف التعليم وفقاً لمستجدات ومتطلبات الحياة المعاصرة، وما يعيشه الفرد المسلم من وقائع وأحداث في مجتمعه، مع الأخذ بعين الاعتبار ما ينصب إليه من أفكار من الخارج الذي بيده هذه التكنولوجيات الحديثة، لتكون التربية الدرع المتين أمام التحديات الداخلية والخارجية.

-التكريس لسياسة العمل الجماعي والانفتاح على التكامل المعرفي بدل الانغلاق التخصصي مع ضرورة إحداث التوازن بين الكم الكيف، واستثمار الطاقات البشرية خاصة الشبابية التي استطاعت هضم وإتقان ما أفرزته التكنولوجيات الحديثة.

قائمة المراجع:

أ- المؤلفات:

1. الحناوي حمدي، رأس المال البشري: تأصيل نظري وتطبيق على مصر، د ط، (الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 2006).
2. الخفاجي سامي، التعليم المفتوح والتعليم عن بعد: أساس التعليم الإلكتروني، د ط، (الأردن، الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2015).
3. العبادي عبد العزيز، ميشال فوكو: المعرفة والسلطة، ط1، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994).
4. الغامدي حمدان بن أحمد، عبد الجواد نور الدين محمد، تطور نظام التعليم في المملكة العربية السعودية، د ط، (الرياض، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، 2004).
5. محمد القيمي، الجامعات العربية المفتوحة ودورها في تعليم الكبار: دراسة مقارنة -التجارب العالمية في الجامعات المفتوحة-، د ط، (تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 2019).

ب-المقالات:

1. بواب رضوان، ميلاط صبرينة، سوسيولوجية التعليم الجامعي-قراءة مفاهيمية ونظرية-، مجلة سوسيولوجيون، المجلد 02، العدد 01، 23 جويلية 2021.
2. بومناقش نبيلة، دور تكنولوجيا المعلومات في بناء تعليمية تفاعلية للأدب الشعبي، مجلة التعليمية، المجلد 15، العدد 02، 26 ديسمبر 2025.
3. تواتي أميرة، الرأس المال البشري: مفهومه، نظرياته، مشكلاته وأساليبه إعداد، مجلة الاقتصاد والإحصاء التطبيقي، 22 ديسمبر 2014.
4. حمادي مسعودة، سلامي خديجة، التعليم الجامعي ودوره في تدعيم التنمية، مجلة الباحث للعلوم الرياضية والاجتماعية، المجلد 04، د ت، العدد 07.
5. حميدي زقاي، محمد أمين رماس، دور التعليم العالي في تنمية الموارد البشرية في الدول العربية، مجلة نور للدراسات الاقتصادية، المجلد 05، العدد 01، جوان 2019.
6. السندي شوكت زين العابدين محمد، فلسفة التعليم العالي: خدمة التنمية البشرية في بناء ذات الإنسان والمجتمع المدني- دراسة تحليلية وصفية-، مجلة الجامعة العراقية، 20 نوفمبر 2023.

7. عمار عائشة، الخطاب التعليمي الجامعي في الجزائر من الطابع النظري إلى التصور التكنولوجي، مجلة التعليمية، المجلد 03، العدد 07، 2015.
8. مبارك فضيلة، ديالكتيك الفلسفة ونجاعة التعليم الإلكتروني، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد 12، العدد 01، 16 جانفي.

References:

A- Publications:

1. Al-Hanawi Hamdi, Human Capital: Theoretical Foundations and Application to Egypt, N.Ed. (Alexandria, Alexandria Book Center, 2006)
2. Al-Khafaji Sami, Open and Distance Education: The Basis of E-Learning, n.d. (Jordan, Academics for Publishing and Distribution, 2015).
3. Al-Ayadi Abdel Aziz, Michel Foucault: Knowledge and Power, 1st ed. (Beirut, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, 1994).
4. Al-Ghamdi Hamdan bin Ahmed, Abdul Jawad Nour Al-Din Muhammad, The Development of the Education System in the Kingdom of Saudi Arabia, n.d., (Riyadh, Arab Bureau of Education Press for the Gulf States, 2004).
5. Muhammad Al-Qimy, Arab Open Universities and Their Role in Adult Education: A Comparative Study - Global Experiences in Open Universities - n.d., (Tunisia, Arab League Educational, Cultural and Scientific Organization, 2019).

B- Articles:

1. Bawab Radwan, Milat Sabrina, Sociology of University Education - A Conceptual and Theoretical Reading - Sociology Journal, Volume 2, Issue 1, July 23, 2021.
2. Boumenkach Nabila, The Role of Information Technology in Building Interactive Education for Popular Literature, Educational Journal, Volume 15, Issue 02, December 26, 2025.
3. Touati Amira, Human Capital: Its Concept, Theories, Problems, and Methods of Preparation, Journal of Applied Economics and Statistics, December 22, 2014.
4. Hamidi Messaouda, Salami Khadija, University Education and its Role in Supporting Development, Al-Baheth Journal of Mathematical and Social Sciences, Volume 04, N.D, Issue 07.
5. Hamidi Zakai, Muhammad Amin Rammas, The Role of Higher Education in Human Resource Development in Arab Countries, Nour Journal of Economic Studies, Volume 05, Issue 01, June 2019.
6. Al-Sindi, Shawkat Zain Al-Abid bin Muhammad, The Philosophy of Higher Education: Serving Human Development in Building the Human Self and Civil Society - A Descriptive Analytical Study - Journal of the University of Iraq, November 20, 2023.
7. Ammar Aisha, University Educational Discourse in Algeria from Theoretical Character to Technological Concept, Educational Journal, Volume 3, Issue 7, 2015.
8. Mubarak Fadila, Dialectics of Philosophy and the Effectiveness of E-Learning, Journal of Human and Social Studies, Volume 12, Issue 01, January 16.